



الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدَ



خاطرة جريدة المساء



-111-

قد يكون الكتاب وثيقة في دار من دور الكتب لا يطلع عليها غير العلماء والمُحقّقين، وقد يكون الكتاب حلية فوق رف من رفوف البيت لا يقرأ إلا في فترات متباعدة وإذا قرئ فهو يقرأ لاستعجال النوم، والقليلون من الناس هم الذين يقرأونه بعد وضعه في مكتبة البيت، أمّا عند النخبة من المثقّفين القراء فالكتاب هو السامر الذي لا يفارقه صاحبه والجلس الذي لا يملّ منه والمعلّم الذي يطمئن إليه الطالب إنّ مع هذا النوع من المثقّفين الصديق والصاحب والأليف لأنّ فيه ما يفتح إكمام العقول وتورّق به أزهار القلوب ويجيا به الموات من النفوس، وبه يغنى الخيال وتزداد الدنيا ثراء فوق ثراء.

والواقع أنّ الكتاب باعتباره مادة للقراءة المتدبّرة هو من الناحية المبدئية مؤشّر حضاري وعنوان على وعي القلوب ويقظة العقل ولولا أيّ أشقّ على الكثيرون من الناس لقلت أنّ الآية القرآنية الأولى التي نزلت على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلّم وهي قوله: (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). أقول لولا أنّي أشقّ على الكثيرون ممّن لا يقرأون لقرّرت أنّ هذا القول السماوي هو أمر بالقراءة وفرض يلزم المؤمن بالاطلاع والبحث عن المعرفة.

والأمر بالقراءة هنا يعني في أقلّ الاعتبار أنّ العجز عن القراءة يدخل في باب الكراهية الشديدة التي تكاد تبلغ حافة الإثم، فالله عزّ وجلّ لم يأمر بالقراءة إلا أنّها باب واسع من أبواب المعرفة بل هي الباب الأوسع ولم يأمر بها إلا لأنّها الوسيلة التي يكتشف بها المؤمن أسرار الخلق فيضعاف الاكتشاف إيمانه ويثبت قلبه ويوثق قلبه ويوثق صلته بالله عزّ وجلّ.

ومهما تساهلنا في هذا الميدان بسبب ظروف القاهرة فإنّ الأمية تبقى شيئاً كريهاً ترفضه روح العقيدة وتترتب عليه كل الانحرافات الخلقية والاجتماعية كما يترتب عليه التخلف الحضاري.

وعندما تسجّل الأمة ظاهرة التخلف وتنصرف بسبب أميّتها عن طريق الاستقامة والأمانة يكون تجاهلها لهذا الواجب وصمة عار في جبين أفرادها.

ولما كانت العبادات مناسبات تعود فيها النفوس الشاردة إلى أصحابها وتلتفت فيها الروح إلى مصادر كمالها، ولما كان المسلمون في هذا اليوم من أيام الحج إلى البيت الحرام في عبادة فقد وجب عليهم وهم يرددون الدعاء ويلبّون نداء الله عزّ وجلّ أن يتذكّروا ما ألزمتهم به السماء من الفروض والواجبات، وما قرّرتهم عليهم من مناهج العمل والسلوك، ويأتي في مقدمة هذه الواجبات واجب التعلّم أي واجب القراءة، والذي جاءت الدعوة القرآنية إليه صريحة في غير لبسٍ ولا إبهام. إنّه من العار على المسلم العابد وهو يتلو كتاب الله أن تتحوّل هذه التلاوة عنده إلى مجرد طقوس لا تغني عقلاً ولا تثري قلباً ولا تزوّد صاحبها بمعرفة، وإنّه من العار على المسلم أن يركب المخاطر ويجتاز المسافات الطويلة في البرّ أو في الجو أو في البحر استجابة لأمر الله ويطعم في البيت الحرام أياماً معدودات على أمل أن يتطهّر من ذنوبه ثم يعود إلى مسقط رأسه دون أن يضيف زاداً جديداً يزداد به قوة على طاعة ربّه ومعرفته بمعجزات خلقه والتزاماً لأوامره ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم، ثم لا سبيل إلى العلم إلا بالسير في أرض الله الواسعة بالبحث المباشر أو بالقراءة المتأنّية المتدبّرة.

عزيزي المستمع...

هل ترغب حقاً في أن تجعل من عبادتك وسيلة مؤكّدة للفوز برضوان الله؟ وهل تريد حقاً أن تكون بين الصديقين الذين حسّن إسلامهم وتطهّرت قلوبهم؟ فاعلم أنّ السبيل إلى ذلك هو العلم. قبالعلم الذي يستند إلى العقل النير والقلب المنفتح تزداد يقيناً بالله وقرباً منه. إنّ كلّ يوم يمرّ بك لا تزداد فيه معرفة بنعمة الله ولا تضيف إلى ذخيرة الإسلام قوة يدفع بها عن نفسه بما تحصّله من المعرفة فهو يوم ضائع يوم يحسب عليك لا لك وسيكون يوماً خفيفاً في الميزان الذي لا يخطئ أبداً.

لقد غلبنا على أمرنا في عالم اليوم لأسباب كثيرة وفي مقدّماتها الأمية التي تفت في عضدنا و توقف مسيرتنا وتجعلنا عيلة على الغرباء وتتشوّه بها صورة الدين الذي تعتزّ به.

في أيام الحج تكون النفوس أكثر وعياً بمعنى العبادة فلا تجعل من هذا الموسم الديني العظيم شيئاً على هامش حياتك بل استمدّ منه العزيمة على تعويض ما فاتك من فرص العمل لتكون عبادتك شهادة لك لا شهادة عليك.